قراءة في تجارب اليوم الأول

نادر وهبة

كان اليوم الأول لمؤتمر القطان في غاية الأهمية بالنسبة لي، فكثيراً ما كنت أتحدث في كتاباتي وفي ورش العمل والمساقات عن مصطلحات تربوية مثل «التعلم التكاملي»، أو «تعلم متعدد الأنساق»، «تعلم من الحياة»، «تعلم في السياق الاجتماعي الثقافي». وكانت مصطلحات تحمل دلالات في الممارسة والفعل، لكنها كثيراً ما تقف عند مستوى النظرية، وإن كتب لها أن تمارس على المستوى الصفي فكانت تزج زجاً في السياق التعليمي، وبشكل مصطنع، ومن دون معنى، فيصبح -مثلاً- التعلم التكاملي عند الممارسة تعليماً يربط بين الرياضيات واللغة، أو بين العلوم والتاريخ أو حتى بين الكيمياء والفيزياء، وكأننا في هذه الحالة نفرض اللغة على الرياضيات، أو التاريخ على العلوم، لنقنع أنفسنا أو طلابنا أو ربما مشرفينا بأنه تعليم تكاملي، فهل هذا حقاً تعلم تكاملي؟ وهل يتحول التعليم إلى تعليم من الحياة أو إلى سياق اجتماعي ثقافي لمجرد استبدال الأسماء أو الأنشطة بتلك المحلية أو المرتبطة بالبيئة الاجتماعية؟

قد يجيب بعض المنظرين «نعم» إنه كذلك، لكنكم أيها المعلمون أجبتم بالأمس «لا». فمن خلال تجاربكم التي عرضتموها، قمتم بتفكيك هذه المصطلحات، وقمتم أيضاً بإنتاج تعريفات جديدة نابعة من الممارسة، ربما بوعي أو غير وعي، لكنكم أيضاً أكسبتموها الشرعية لأنها اكتسبت معانيها من صيرورة الفعل مع الذات ومع طلابكم، وتركتم تلك التعريفات النظرية المستهلكة التي ربما جاءتنا من الخارج عارية ومجردة من المعاني. فمن يريد أن يتعرف على التعلم في السياق الاجتماعي الثقافي فليأتِ ويدرس تجربة يوسف ومحمد الخواجا في رحلتهما مع طلابهما عن المدية، أو تجربة إسلام كبها عبر مشروع «حياة البلبيسي»، ومن يريد أن يتعرف على التعلم عبر الحياة فليسال كل من وائل فقيات ومحمد شاهين عن تجربتهما في تعليم التفكير، وليسأل أيضاً ريما طه وداود فرعون عن تجربتهما مع الذات، وتأملهما في أدوارهما. من يريد أن يتعرف على المعنى الحقيقي للتعليم متعدد الأنساق أو ما يسمى التكاملي، فليطلب من

كنانة الدجاني أو ختام الزبن أن تحدثاه عن كيف عايشتا وطلبتهن تكاملية المعرفة عبر العلوم. ولست هنا بصدد تصنيف تجارب الأمس، فمن مر في التعليم التكاملي قد مر أيضاً بالتعليم عبر الحياة، أو بتعليم في سياق اجتماعي ثقافي، أو ربما تعليم من نوع آخر نعجز أن نصنع له مصطلحاً تربوياً حتى الآن.

وما يميز تجارب الأمس –واليوم أيضاً لأني على اطّلاع وثيق بها، أنها تلقي الضوء على نوع مهم من مناهج البحث، وهو للأسف مغيب في مؤسساتنا وجامعتنا. وربما من أكثر الانتقادات أهمية على مناهج البحث التقليدية أن الباحث يدخل إلى الميدان بأهداف واضحة ومحددة مسبقاً، مستنداً إلى إطار نظري بالتالي يرى ما يريد أن يراه، وربما يجعل الاستبانة أو المقابلة أو المشاهدة أدواته لتبرير ما يريد أن يراه، وفي النتائج يشخص المشاكل، ويصنفها، ويعيد تأطيرها بنظرياته، ويخرج من الميدان بتوصياته، تاركاً وراءه ذلك الإنسان المبحوث؛ سواء أكان معلماً أم طالباً أم مجتمعاً ما، حتى أنه لا يطلعه على نتائج دراسته، لا بل يغير اسمه في الدراسة تحت ذريعة «أخلاقيات البحث»، أو من أجل الحفاظ على خصوصية المبحوث دون علم منه، بأنه بذلك قد ارتكب جريمة أخلاقية أكبر؛ وهي عدم التدخل من أجل وعي المبحوث وتغيير واقعه.

أنتم بالأمس أيها المعلمون والمعلمات قلبتم المفاهيم حول البحث، واخترتم منهج البحث التدخلي – التحريري. تدخلي بمعنى أنكم دخلتم إلى الميدان، وجعلتم المعلم والطالب وذواتكم أيضاً موضع الدراسة والبحث، عايشتم التجربة من الداخل، وعملتم مع المبحوث على قدم وساق من أجل تغيير الواقع التعليمي، وجعلتم شهادات الطلبة والمعلمين وتأملاتهم وأفعالهم بيانات داعمة لهذا التغيير. ونعم تحررية لأنكم حررتم المعلمين والطلاب من سيطرة الكتاب المدرسي ذي الوحدات المنفصلة، ومن هواجس الرقابة التفتيشية، ومن دور العارف، الملقن، وتوجهتم بهم ومعهم نحو مصادر متنوعة للمعرفة والثقافة ونحو التأمل من أجل بناء المعرفة حول الذات والهوية والمهنة، ويسرتم الطريق أمامهم لكي يختاروا هم بأنفسهم آليات التغيير.

جميعكم تحدث عن القلق، والخوف، والرهبة خلال التجربة. وعن الوقفات التأملية وإعادة التخطيط في ضوء التجربة، وعن تغيير القناعات، وعن إشكالية وجدلية هل أترك العنان للتجربة لتقود نفسها أم أضبطها ضمن حدود الأهداف وإطارها؟ وهل أخطط لكل الحصص وأتقيد بهذا التخطيط أم أعطي دوراً أكبر للطالب ليقود التخطيط؟ فمثلا، توقعت كنانة عندما سألت طلابها عن تعريف الألم إن يجيبوها من منظور علمي أو أن يتطرقوا إلى الدماغ، وقامت بالتخطيط للتجربة بناء على ذلك، لكنها تفاجأت من أن معظم الإجابات تمحورت حول النفسي والاجتماعي، وأذكر أنها جاءت إلى المركز محتارة، قلقة، أو ربما يائسة، لكنها سرعان ما أعادت بناء التجربة لتحاكي الألم بمفاهيمه الاجتماعية والعلمية. هنا قاد الطلبة التخطيط وليس العكس.

حاكت تجارب الأمس معظم الحضور، ففي الاستراحات، تحدثت مع بعض المعلمين واقتبست هذه الأقاويل:

- خسارة، كنت حابه أن أحكي عن تجربتي؟
- متى تعقدون المؤتمر القادم، أريد أن أعرض تجربتي مع الطلاب في التكنولوجيا.
- أنا فكرت في التجربة اللي بقوم فيها حالياً، وسوف أقوم ببعض التغييرات عليها بناء على هذه التجارب.
- سوف أقوم بعمل تجربة مشابهة لتجربة المدية في مدرستي.
- كيف نستطيع أن نحصل على الأفلام، أريد أن أطبق التجربة في صفي.

وغيرها من الانفعالات التي تبرهن على واقعية التجربة وقابليتها للنقل.

أما أسئلة الحضور ومداخلاتهم، فكانت غنية، وتحدثت عن إشكاليات مختلفة على مستوى التطبيق والتعميم. والسؤال الذي يتكرر دائماً: كيف نكون مبدعين في ظل القوانين التربوية الحالية والواقع . . . وأنا أدرس 40 طالباً . . . الخ، وربما أجابت التجارب

نفسها عن هذا السؤال، فتلك القوانين هي القوانين نفسها التي تطبق على أصحاب تلك التجارب، ومعظمهم يدرسون في مدارس واقعها صعب، لكن السؤال: هل نخضع للواقع أم نغير في الواقع . . . التجارب قالت: نحن غيرنا الواقع بقدراتنا المحدودة.

وسؤال آخر ومهم: كيف نعمم التجربة؟ أقول إن معظم التجارب خرجت بمشاريع قابلة للتطبيق في مدارس أخرى؛ فهناك كتاب المدية الذي سيصدر قريباً، وهناك أفلام الفيديو التي تحكي تفاصيل التجربة، وأخيراً هذا المؤتمر الذي من أهم أهدافه تعميم التجارب، آخذين بعين الاعتبار خصوصية المكان والأشخاص.

ولأولئك الذين سألوا: هل أثمرت فيكم جهود «التدريب» طيلة هذه الفترة؟ أجبتموهم بأنه تماماً كما فعل «التمدرس» فعله على الطفل، فنزع عنه وجهه الضحوك المفعم بالحيوية والأمل والحياة وحب المعرفة، واستبدله بذلك الوجه المسخ الخالي من التعابير، كما في الفيلم الذي شاهدتموه قبل قليل (The Wall)، فإن التدريب أيضاً فعل فعله فينا، فأصبحنا «بضاعة» تمر على حزام «التصنيع» لنخرج بقوالب موحدة . . . قلتم لهم: لقد تركنا هذا التدريب، وتوجهنا نحو تكون مهني ذاتي بأنفسنا وبمساعدة والآخرين.

لا أريد الإطالة عليكم أكثر، فما هو قادم أهم من هذا الكلام، ففي هذا اليوم أيضاً، هناك تجارب في الرسوم المتحركة من عمل أطفال، وتجارب في الطفولة المبكرة تظهر قدرة الطفل الخارقة على التعلم عبر بناء المعاني، وهناك تجارب حياتية فيها التحقق والمساءلة، فلنتعلم من المشاركين ومن تجاربهم المزيد. لكن دعني أنهي بالقول إن التحدي الأكبر لنا جميعا هو كيف نستمر في هذه التجارب التحررية في ظل شعارات «ضبط الميدان»، وسياسات «الامتحانات الموحدة»، التي ستكثف في القريب العاجل تحت ذريعة «رفع التحصيل» . . . كلي أمل في أن لا تؤثر هذه السياسات على عمل المعلم نحو فهم ذاته من خلال عملية التكون المهني عبر التجربة والمشروع.

نادر وهبة – مركز القطان